إعجاز القرآن التأثيري

د. أحمد الآبالق / تركيا

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن من نعم الله سبحانه وتعالى على الخلق أن بعث فيهم مرسلين يبلغونهم الحق ويهدونهم إلى سبل الرشاد؛ ذلك لأن العقل وحده لا يكفي ولا يغني عن الهداية الربانية فإن طبيعة الناس حرصهم على ما ألفوه وتقليدهم لآباءهم وأجدادهم فيما عرفوه منهم وقد قال تعالى عنهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ الزخرف: ٢٣. فالطبيعة البشرية منعتهم من الاستجابة للرسل عليهم السلام ودعتهم إلى تكذيبهم، ولكن الرحمة الإلهية اقتضت تأييد الرسل عليهم السلام بالمعجزات لتكون دليلاً واضحا على صدق دعواهم وصحة تبليغهم حتى لا يبقى في النفس شك أو وهم، فكانت معجزات الأنبياء والرسل مادية حسية فمعجزة موسى عليه السلام العصا واليد لتوافق عصره حيث كان السحر طاغيا على العقول، وجاءت معجزة عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى معجزةً حسية أيضا وهكذا فما من نبي إلا وأجرى الله على يديه معجزة تدل على صدق نبوته.

وقد ارتضى الله سبحانه لهذه الأمة أن تكون فيها خاتمة الرسالات السماوية وهذا من فضله سبحانه وتعالى على هذه الأمة فأرسل محمداً صلى الله عليه وسلم للعالمين إلى يوم الدين وقد جعل الله عز وجل معجزته مخالفة لمعجزات الأنبياء جميعاً، ذلك أن معجزات الأنبياء حسية مادية يراها الناس أمامهم، أما معجزة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءت عقلية معنوية لتلائم كل زمان ومكان فإن الآيات الحسية تنقضي ولا تبقى بعد وفاة الأنبياء ولأن رسالة الإسلام ليست خاصة بالعرب وحدهم بل للناس جميعاً.

لقد جمعت معجزة القرآن الإعجاز العلمي والتشريعي والنفسي والروحي والتأثيري إلى جانب الإعجاز البياني، وقد حفظ الله تعالى هذه المعجزة وهذا الحفظ له معجزة أخرى فقد قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في ذلك: [ومن وجوه إعجازه – أي القرآن – كونه آية باقية ما بقيت الدنيا مع ما تكفل الله بحفظه بينما المعجزات الأخرى لم يبق إلا خبرها].(١)

ولأنه وقع الإنكار بالفعل للمعجزات الحسية حتى في عصرها ممن شاهدوها ردَّ الله على طالبيها بقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴾ الإسراء: ٥٩. وقد كذبوا بالفعل معجزة انشقاق القمر.

ولأن المعجزات الحسية لا تناسب التطور العلمي كما يناسبه القرآن، فالقرآن يخاطب في الإنسان القلب والروح والنفس؛ لذلك كان تأثيره في الناس أكثر.

يقول أحمد نعيم سوسة – وهو يهودي عراقي أسلم – في كتابه: (طريقي إلى الإسلام): [إن معجزة القرآن أكثر بروزاً في العصر الحالي مما كانت عليه في الأزمنة السابقة التي سادها الجهل والخمول]. (٢)

هذا وقد ثبت في نماذج عديدة وجود عدة وجوه للإعجاز القرآني، ولكن هناك إعجاز لم يقف عنده كثير من الباحثين ألا وهو تأثيره في النفس الإنسانية وسلطانه العجيب على القلوب فإن السامع للقرآن الكريم تجده إذا استمع إليه ينجذب نحوه بخشوع وخشية قد تصل إلى القشعريرة والبكاء.

ولهذا أرى أن أقف على سر هذا التأثير القرآني والذي قد أشار إليه الإمام الخطابي في رسالته.

يتبين للباحث في موضوع الإعجاز القرآني أنه يتوجه نحو موضوعين هما الإعجاز البياني وهو ما يتحدث عن أسلوب القرآن الكريم وبلاغته وفصاحته مع نظمه والآخر الإعجاز الموضوعي وهو ما يتحدث عن موضوعات القرآن المطروحة مثل التشريعات والحقائق العلمية الكريم وبما أن تأثيره في الغير يعتبر من تلك الموضوعات فلذلك كان اختياري لهذا الموضوع دون غيره في هذا البحث.

سأحاول الإجابة على بعض التساؤلات مثل:

ما هو الإعجاز التأثيري؟

وما المقصود به؟

ثم أين يقع إعجاز القرآن التأثيري؟

وهل الإعجاز التأثيري يتبع الإعجاز البياني؟

وغير ذلك من التساؤلات.

سوف أبحث لها عن الإجابات وأقف عندها إن شاء الله هذا وقد قسمت البحث إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: مفهوم إعجاز القرآن التأثيري.

المبحث الثاني: إشارة القرآن الكريم إلى الإعجاز التأثيري.

المبحث الثالث: موقف العلماء من إعجاز القرآن التأثيري.

المبحث الرابع: نماذج من الإعجاز التأثيري.

والله تعالى أسأل التوفيق والسداد إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير إنه نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الأول: مفهوم إعجاز القرآن التأثيري

المطلب الأول: معنى الإعجاز لغة واصطلاحاً

أولاً: المعنى اللغوي:

للتعريف اللغوي أهمية كبيرة في تحديد المصطلحات القرآنية وذلك لأن القرآن قد نزل بلسان عربي مبين، ومن هنا كان التحدي بالكلام والبيان الذي نزل به القرآن.

وللوقوف على مصطلح "الإعجاز" من حيث معناه اللغوي لا بد من الوقوف على جذوره وأصله الثلاثي.

أما الجذر الثلاثي للإعجاز فهو: (عجز)، وجميع الاشتقاقات مأخوذة من هذا الأصل الثلاثي مثل: إعجاز، ومعجزة، وعجوز،...وغيرها.

فمعنى العجز: هو مؤخر الشيء والتأخر عن الشيء، يقول الراغب الأصفهاني: [عجز الإنسان مؤخره، وبه شبه مؤخر غيره، قال تعالى:﴿ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾القمر: ٢٠.

والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر أي مؤخره كما ذكر في الدبر، وصار في التعاريف اسماً للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدر، قال تعالى:﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ ﴾المائدة: ٣١

وأعجزت فلانا وعجزته وعاجزته : جعلته عاجزاً ... والعجوز سميت لعجزها في كثير من الأمور، قال تعالى: ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ الشعراء : ١٧١ . وقال:﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ هود: ٧٢].[٣]

وبمثل هذا قال السمين الحلبي في عمدة الحفاظ[٤].

وقال ابن فارس: [العين والجيم والزاي أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف والآخر على مؤخر الشيء]. [٥]

ومن اللطيف الإشارة هنا إلى أن عين الكلمة (الجيم) في الفعل الماضي تقرأ مثلثة بالفتح والكسر والضم وفي كل حركة لها معنى.

بالفتح: تقول: عَجَزَ، يَعْجِزُ، عَجْزاً. من باب: ضَرَبَ، يَضْرِب، والمعنى: ضعف عن الشيء ولم يقدر عليه.

بالكسر: تقول:عَجِزَ، يَعْجَزُ، عَجَزاً. من باب: شَرِبَ، يَشْرَبُ. والمعنى: عظمت عجيزته وكبرت مؤخرته.

بالضم: تقول: عَجُز، يَعْجُزُ، عُجوزاً. من باب: كَرُمَ، يَكْرُم. والمعنى: صار عجوزاً ضعيفا عاجزاً. [٦]

وهذه المعاني ليست متناقضة ولا تخرج عن أساس معنى العجز في اللغة.

هذا عن المعنى اللغوي للجذر الثلاثي لمادة: (العَجْز).

أما الإعجاز فهو مصدر الفعل الرباعي: (أعجز).

عندنا فعلان:

الأول: فعل ثلاثي: تقول: عَجَز، يَعْجِزُ، عَجْزاً، فهو عاجز، بمعنى: ضعف عن فعل الشيء وقصر عن التنفيذ وتأخر عن العمل المطلوب ولم يقدر عليه.

الثاني: فعل رباعي، تقول: أعجَزَ، يُعْجِزُ، إعجازاً، فهو مُعْجِزٌ، بمعنى: سبق وفات، تقول: أعجز الرجل خصمه، بمعنى: فاته وسبقه وفاز عليه وغلبه بحيث لم يستطع الخصم العاجز إدراكه واللحاق به.

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

أما المعنى الاصطلاحي للإعجاز فهو متحقق في إعجاز القرآن وهو مركب إضافي أضيف فيه المصدر إلى القرآن أي من باب إضافة المصدر إلى فاعله.

وتقدير الكلام: أعجز القرآن الكافرين عن أن يأتوا بمثله بحيث عجزوا عن ذلك.

والتعريف الاصطلاحي لإعجاز القرآن هو: عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن وقصورهم عن الإتيان بمثله رغم توفر ملكتهم البيانية وقيام الداعي على ذلك وهو استمرار تحديهم وتقرير عجزهم عن ذلك. (٧)

المطلب الثاني: مفهوم إعجاز القرآن التأثيري عند العلماء

تحدث العلماء عن الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وعدوه وجهاً من وجوه الإعجاز القرآني، وقد وضعوا له عدة تعاريف، إلا أن هذه التعريفات انطلقت كلها من تعريف الإمام الخطابي حيث إنه أول من أشار إلى هذا الوجه من الإعجاز ولهذا سأحاول في هذا البحث ذكر مفهوم الإعجاز التأثيري عند العلماء.

يقول الخطابي – رحمه الله تعالى –: [قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنـــزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم وأن يركنوا إلى مسالمته صلى الله عليه وسلم ويدخلوا في دينه فصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً]. (٨)

ويتبين من خلال النص السابق أن الخطابي هو أول من يحدد مفهوم الإعجاز التأثيري وهو تأثيره في النفوس وما يصنعه بالقلوب فلا يوجد كلام منظوم له تأثير على النفس مثل القرآن الكريم حتى شهد لهذا التأثير العدو قبل الصديق، وسوف أذكر أمثلة من هذه الشهادات في حينه إن شاء الله تعالى.

وللقاضي عياض رأي في الإعجاز التأثيري لا يختلف عن رأي الإمام الخطابي فهو يعده وجهاً من وجوه الإعجاز حيث يقول: [ومنها – أي أوجه الإعجاز – الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله، وإنافة – علو مرتبة – خطرة، وهو على المكذبين به أعظم حتى لو كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفوراً كما قال تعالى[٩] ويودون انقطاعه لكراهتهم له]. [١٠]

ومن خلال النص السابق للقاضي عياض نراه يؤكد أن تأثير القرآن على المكذبين به أقوى وأعظم منه على المصدقين به، وذلك عائد لذكره فضائحهم من هذا الجانب فقط، ولا شك أن تأثيره على المؤمنين به أعظم منه على الكافرين به والدليل على ذلك هو زيادة إيمانهم به كما جاء في آيات كثيرة في كتاب الله تعالى منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾الزمر: ٢٣.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨. فهاتان الآيتان تدل كلتاهما على مدى تأثر المؤمنين بالقرآن وتأثيره فيهم من خشية واقشعرار واطمئنان وهداية، ومن هنا نجد الفرق بين خشية المؤمن وخشية الكافر، فإن المؤمن يخشى من التقصير في العبودية والتسليمية لله، بينما الكافر المعاند والمنافق الشرير يخشى أن تنـــزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات قرآنية تفضحه وتبين نفاقه.

لقد تقدم رأيان لعالمين من العلماء السابقين في إعجاز القرآن التأثيري، أما عن رأي العلماء المعاصرين فإن الأمر لا يكاد يخرج عن ذلك إلا أن هناك توسعاً في هذا الجانب فكان الموضوع – موضوع الإعجاز التأثيري – عندهم أكبر من مجرد الإشارة إليه بل كان له نصيب من الاعتناء والبحث والدراسة.

يقول سيد قطب: [سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام ومن جعل على بصره منهم غشاوة، وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد صلى الله عليه وسلم وحدها هي داعيتهم إلى الإيمان في أول الأمر كزوجه خديجة،... فإننا نجد أن القرآن كان العامل الحاسم أو أحد العوامل الحاسمة في إيمان الذين آمنوا أوائل أيام الدعوة يوم لم يكن لمحمد صلى الله عليه وسلم حول ولا طول ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا منعة]. [١١]

ومن هنا نرى أن سيد قطب يقرر أن للقرآن سحراً في نفوس سامعيه، ونحن وإن اختلفنا معه في إطلاق هذه اللفظة – سحر – حيث إن كثيراً من أعدائه أطلقوها عليه كما ذكر ذلك القرآن الكريم حين وصف الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾المدثر: ١٨ – ٢٤ . وقد نفاها القرآن فقال: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾الطور: ١٥. وإن كان سيد قطب يقصد بالسحر استحواذ القرآن على نفوسهم إلا أننا لا

نوافقه على استخدام تلك اللفظة فقط ونوافقه في أن القاصي والداني قد اعترف بتأثير القرآن على النفس الإنسانية، يقول سيد قطب: [ومن هنا تلتقي قصة الإيمان بقصة الكفر في الإقرار بسحر هذا القرآن وتلتقي على الإقرار به شخصيتان قويتان بينهما من المدى في الاختلاف ما بين عمر بن الخطاب والوليد بن المغيرة، فتشرح التقوى صدر عمر للإسلام وتصد الكبرياء الوليد عن الإذعان ويذهبان في طريقهما متدابرين بعد أن يلتقيا في نقطة واحدة نقطة الإقرار بسحر القرآن]. (١٢)

ومن الآراء المعاصرة ما ذهب إليه محمد فريد وجدي وهو أن إعجاز القرآن البارز هو الإعجاز الروحي – التأثيري – وذلك لأن البلاغة ليست أكثر الوجوه سلطاناً على النفس بل إن للبلاغة على الشعور الإنساني تسلطاً محدوداً لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال في الضعف شيئاً فشيئاً بتكرار سماعه حتى تستأنس به النفس فلا يعود يحدث فيها ما كان يحدثه في مبدأ توارده عليها.

لكن تأثير القرآن يختلف عن هذا فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيده تأثيراً فتجعل سامعه وقارئه يسمو به على كل شيء، وسر هذا التأثير أو علته هو أنه روح من أمر الله سبحانه وتعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾الشورى: ٥٢. فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الأجساد فيحركها ويتسلط على أهوائها وأما تأثير الكلام في الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها]. (١٣)

ويعرِّف أستاذنا أ.د فضل عباس هذا الإعجاز وقد أسماه الإعجاز الروحي قائلاً: [فالإعجاز الروحي هو ذلكم التأثير العظيم لهذا القرآن على النفوس هيبة وحلاوة ورغبة ورهبة... حتى أولئك الذين لا يفهمون معانيه ولا يفهمون ألفاظه نجدهم يتأثرون بهذا القرآن...]. (١٤)

ومن خلال الأقوال السابقة يمكننا تعريف الإعجاز التأثيري بأنه: ما يصنعه القرآن في القلب من روعة وهيبة تجعل سامعيه يتأثرون به.

وعلة ذلك أن القرآن الكريم روح من أمر الله سبحانه وتعالى.

المبحث الثاني: إشارة القرآن الكريم إلى الإعجاز التأثيري

أشار القرآن الكريم في عدد من آياته إلى كونه معجزاً بتأثيره في النفوس وإن هذا التأثير خاصية ملازمة له.

المطلب الأول: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في المؤمنين وغيرهم

وقد صنفت المتأثرين بآي القرآن من خلال استقراء الآيات إلى الأصناف التالية:

أولاً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في المؤمنين.

ثانياً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في الكافرين.

ثالثاً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في أهل الكتاب.

رابعاً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في الجن.

خامساً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في المطلق.

أولاً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في المؤمنين:

من أعظم الآيات دلالة على تأثير القرآن في المؤمنين قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾الزمر: ٢٣.

يقول العلامة الآلوسي: [والمعنى: أنهم إذا سمعوا القرآن وقوارع آيات وعيده أصابهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم وإذا ذكروا رحمة الله تعالى عند سماع آيات وعده تعالى وألطافه تبدلت خشيتهم رجاء ورهبتهم رغبة وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾أي ساكنة مطمئنة إلى ذكر رحمته تعالى]. (١٥)

ومن الأدلة القرآنية عليه قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾الأنفال: ٢.

وهذا التأثير المبيّن في الآية من وجل القلب وزيادة الإيمان وقد جعل القرآن الكريم من خلال قصر اللفظ بـــ: (إنما) من لم تظهر عليه هذه العلامات غير موصوف بصفة الإيمان ولا لاحقاً بركاب المؤمنين، فالتعبير القرآني دقيق ومحكم في بنائه اللفظي.

يقول الإمام الطبري: [ليس بالمؤمن الذي يخالف الله ورسوله ويترك اتباع ما أنزل إليه في كتابه من حدوده وفرائضه والإنقياد لحكمه ولكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه وانقاد لأمره... وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدّق بها وأيقن أنها من عند الله فازداد بتصديقه بذلك إلى تصديقه بما كان قد بلغه منه قبل ذلك تصديقاً وذلك هو زيادة ما تأتي عليهم من آيات الله إياهم إيماناً]. (١٦)

ثانياً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في الكافرين:

لا شك أن الكافرين كانوا إذا ما استمعوا للقرآن عرفوا له قدره ومكانته وشعروا به يسري – بلا رغبة منهم – إلى أعماق نفوسهم يؤثر فيها تأثيراً بليغاً ولكن استكبارهم وإصرارهم على كفرهم وعلى المضي في طريق العداء للإسلام وبنيه والصد عن دعوته جعلهم ينصرفون عنه بل ويحثون غيرهم على عدم الاستماع له خشية أن يتأثروا به. قال تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾فصلت: ٢٦. ونهي الكافرين بعضهم وتواصيهم بعدم السماع لهو أكبر دليل وأقوى حجة على تأثير القرآن الشديد فيهم.

يقول ابن عاشور: [فإنهم علموا أن القرآن كلام هو أكمل الكلام شريف معان وبلاغة تراكيب وفصاحة ألفاظ وأيقنوا أن كل من يسمعه وتداخل نفسه جزالة ألفاظه وسمو أغراضه قضى له فهمه أنه حق اتباعه وقد أدركوا ذلك بأنفسهم ولكن غالبَتهم محبة الدوام على سيادة قومهم فتمالؤوا ودبروا تدابير لمنع الناس من استماعه وذلك خشية من أن ترق قلوبهم عند سماعه]. (١٧) وبكفرهم وصدهم عن سبيل الله جعل الله تأثير القرآن على الكافرين زيادة في الخسران فكلما سمعوه كلما ازدادوا نفوراً فكان لهم زيادة في الخسارة وهو عليهم زيادة في العمى، قال تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾الإسراء: ٨٢. وقال عز من قائل:﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾فصلت: ٤٤.

يقول العلامة الآلوسي: [وجيء بعلى في: ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ للدلالة على استيلاء العمى عليهم، ولم يذكر حال القلب لما علم من التعريض في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ بأنه لغيرهم مرض فظيع].(١٨)

ثالثاً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في أهل الكتاب:

وأقصد بأهل الكتاب النصارى منهم، إذ أن عامة اليهود وإن عرفوا الحق لم ينتفعوا بذلك قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾المائدة: ٨٢.

[فهم إذا سمعوا القرآن اهتزت مشاعرهم ولانت قلوبهم وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثير العميق العنيف بالحق الذي سمعوه والذي لا يجدون في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثير درجة أعلى من أن يفي بها القول فيفيض الدمع ليؤدي ما يؤديه القول وليطلق الشحنة الحبية من التأثير العميق العنيف].(١٩)

رابعاً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في الجن:

لم يكن القرآن الكريم مقصوراً في هدايته وتشريعه على البشر وحدهم بل خوطب به الثقلان – الجن والإنس – وهذا الخطاب للجن إضافة إلى الإنس تلمسه في كثير من آيات القرآن الكريم وقد أشارت بعض الآيات إلى استماع الجن لكلام الله وتأثرهم الشديد به ومن هذه الآيات ما افتحت به سورة الجن، قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ الجن: ١ – ٢.

لقد استمعوا إلى القرآن استماعاً نفذ إلى أعماقهم وكان تأثيره عجباً عجاباً فبدل الشرك توحيداً والكفر إيماناً.

يقول ابن عاشور: [فهم ما إن سمعوه وفهموا معناه حتى آمنوا به فقد دخل قلوبهم واستحوذ عليها وكيف لا يكون ذلك وهم أنصتوا له بكل جوارحهم وقد وصفوا القرآن الكريم بالعجب وذلك للمبالغة في قوة المعنى أي يعجب منه ومعنى ذلك أنه بديع فائق في مفاده]. (٢٠)

ولم يقف الأمر عند حد الإيمان فقد كان تأثيره في نفوسهم شديداً إلى حد لم يستطيعوا معه إلا الجهر بالدعوة إليه، فانطلقوا إلى قومهم دعاة إلى الله.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾الأحقاف: ٢٩ – ٣٢.

يقول سيد قطب: [ومقالة النفر من الجن – مع خشوعهم عند استماع القرآن – تتضمن أسس الاعتقاد الكامل]. ويضيف: [ولقد صورت الآيات الانطباع الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما تطيق السكوت عليه أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به]. (٢١)

خامساً: الآيات القرآنية التي تشير إلى تأثير القرآن في المطلق:

أشار القرآن الكريم إلى عظمته كونه وحياً وروحاً من أمر الله حين مثّل بمثال على مقدرته على التأثير حتى في الجمادات.

قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾الحشر: ٢١.

[فالله سبحانه وتعالى يقرر أن لو أنزل هذا القرآن على جبل وهو حجر لكان هذا الجبل متذللاً متصدعاً من خشية الله على قساوته حذراً من أن لا يؤدي حق الله تعالى المفترض عليه في تعظيم القرآن].(٢٢)

[فالقرآن الكريم من عظمته لو أن الله أنزله على جبل وكان الجبل يفهم الخطاب لتأثر بخطاب القرآن تأثراً ناشئاً من خشية الله خشية تؤثر فيها معاني القرآن]. (٢٣)

[وذلك لأن للقرآن ثقلاً وسلطاناً وأثراً مزلزلاً لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحاً لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازاً ويرتجف ارتجافاً]. (٢٤)

المطلب الثاني: إشارة القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى تأثيره بالاستشفاء به

وردت آيات عديدة في القرآن الكريم تدل على كون القرآن شفاء، ومن هذه الآيات قوله تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾الإسراء: ٨٢. أي أن القرآن [يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل، القرآن يشفي من ذلك كله، وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقة واتبعه فإن يكون شفاء في حقه ورحمة]. (٢٥)

وهو كذلك شفاء من الوسوسة والقلق والحيرة فهو يصل القلب بالله فيسكن ويطمئن ويستشعر الحماية والأمن...وفي القرآن شفاء من الاتجاهات المختلفة في الشعور والتفكير...وفي القرآن شفاء من العلل الاجتماعية التي تخلخل بناء الجماعات]. (٢٦)

ولا تمنع هذه التفاسير من كون القرآن شفاء من الأمراض والعلل الأخرى لأن اللفظ على عمومه ولم يأت ما يخصصه، ولأنه نكرة في المواضع التي جاء فيها كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾فصلت: ٤٤. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾يونس: ٥٧.

والنكرة تفيد العموم كما أن السنة النبوية ورد فيها ما يبين كونه شفاء ورقية يرقى بها المريض فيشفى.

وقد وصف الله سبحانه القرآن في الآيات السابقة بأنه رحمة وشفاء وهدى والعطف يقتضي التباين.

كما أن السنة النبوية تبين أن القرآن يستشفى به، ويؤثر في العليل فيبرأ، وذلك من خلال عدة أحاديث منها ما رواه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها: ((أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان ينعت على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيده نفسه لبركتها)). (٢٧)

ومنها ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – ((ناساً من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – أتو على حي من أحياء العرب فلم يقروهم، فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد هؤلاء، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل فبرأ، فأتوا بالشاء فقالوا: لا تأخذه حتى نسأل النبي – صلى الله عليه وسلم – فسألوه فضحك وقال: ما أدراك أنها رقية؟ خذوها واضربوا لي بسهم)). (٢٨)

المطلب الثالث: حث القرآن الكريم على الاستماع لآياته والتدبر لها

إذ أن التأثير القرآني يمكن حصوله بلا استماع ولذلك تواصى الكافرون بعدم السماع منعاً من حصول التأثير به.

قال تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ق: ٣٧.

يقول الإمام ابن القيم: [وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ أي وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له وهذا شرط التأثر بالكلام]. (٢٩)

قال ابن قتيبة: [استمع كلام الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر]. (٣٠)

وقد وردت آيات كثيرة تؤكد على أهمية هذه القضية وهي قضية الاستماع والإنصات ثم التدبر وبهذه المراحل الثلاث يحصل ما يراد من القرآن من زيادة الإيمان والهداية.

قال تعالى:﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾الأعراف: ٢٠٤

يقول رشيد رضا في المنار: [والاستماع أبلغ من السمع لأنه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه، ويحصل ولو بغير قصد ممن استمع وأنصت كان جديراً بأن يفهم ويتدبر]. (٣١)

ويقول سيد قطب مبيناً أثر هذا الاستماع: [وإن الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس – حين تستمع لها وتنصت – أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والتكيف والرؤية والإدراك والطمأنينة والراحة والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة مما لا يدركه إلا من ذاقه وعرفه]. (٣٢)

وقد حث القرآن الكريم على التدبر والتفكر والتعقل وهي مرحلة تلي الاستماع والإنصات قال تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ص: ٢٩.

قال الزمخشري: [وتدبر الآيات: التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة].(٣٣)

وقد ذم الله سبحانه من لا يتدبر القرآن فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾محمد: ٢٤.

[فعدم تدبرهم للقرآن تسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح]. (٣٤)

المبحث الثالث: موقف العلماء من إعجاز القرآن التأثيري

المطلب الأول: موقف العلماء السابقين

سبق أن ذكرنا أن الإمام الخطابي هو أول من لفت الأنظار إلى إعجاز القرآن بتأثيره في النفوس كوجه من وجوه الإعجاز القرآني وأن القاضي عياض قد تبعه في ذلك. أما غيرهم من العلماء وموقفهم من هذا الإعجاز فهو موضوع هذا المبحث وأخص من العلماء هؤلاء الذين تحدثوا عن إعجاز القرآن ومنهم:

أولاً- الرماني:

اشتهر الإمام الرماني صاحب (النكت في إعجاز القرآن) بحديثه عن الإعجاز القرآني، وقد حصره في سبعة أوجه وهي:

١- ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة.

٢- والتحدي للكافة.

٣- والصرفة.

٤- والبلاغة.

٥- والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية.

٦- ونقض العادة.

٧- وقياسه بكل معجزة.

ولكنه لم يشر إلى كون القرآن معجزاً بتأثيره في النفوس. [٣٥]

ثانياً: القاضي أبو بكر الباقلاني:

وقد قرر في كتابه إعجاز القرآن أن وجوه الإعجاز محصورة في ثلاثة أوجه:

١- الإخبار عن الغيوب (ويقصد بها المستقبلية).

٢- حال النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان أمياً وجاء بالأخبار السابقة.

٣- أسلوب القرآن وبيانه الذي فاق كل كلام.

وبهذا نرى أن الإمام الباقلاني قد سار على خطى من سبقه في بيانه لأوجه الإعجاز لكنه أشار إشارة لطيفة إلى تأثير القرآن في النفوس ضمن حديثه عن الإعجاز البياني فتراه يقول: [وإذا تأملت على ما هديناك إليه ووقفناك عليه فانظر هل ترى وقع هذا النور في قلبك واشتعاله على لبك وسريانه في حسك ونفوذه في عروقك وامتلاءك به إيقاناً وإحاطة واهتداءك به إيماناً وبصيرة؟ أم هل تجد الرعب يأخذ منك مأخذه من وجه، والهزة تعمل في جوانبك من لون، والأريحية تستولي عليك من باب؟ وهل تجد الطرب يستفزك للطيف ما فطنت له، والسرور يحركك من عجيب ما وقفت عليه؟]. [٣٦]

لكن الباقلاني وهو يقول هذا الكلام فإنه يرجع هذا التأثير إلى بلاغة القرآن ونظمه لا إلى كون التأثير وجهاً منفرداً مستقلاً من أوجه الإعجاز.

ثالثاً: الإمام عبد القاهر الجرجاني:

وهو ممن برز واشتهر بحديثه عن الإعجاز القرآني وهو الذي قدم نظريته الفريدة في إعجاز القرآن وهي نظرية: "النظم" مما جعله رائداً في علم الإعجاز يرجع إليه العلماء لينهلوا من نبع علمه.

وقد نصت نظرية النظم عند الجرجاني على أن التحدي والإعجاز في النظم والتأليف.

والنظم: هو توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلمات والجمل والفقرات، فالكلمات في الجملة لا يجمعها ويؤلف بينها إلا النحو. (٣٧)

لكن الجرجاني لم يشر إلى الإعجاز التأثيري في القرآن ولا إلى بقية أوجه الإعجاز السابقة وردَّ كل شيء إلى النظم، فالنظم هو أساس الإعجاز.

رابعاً: الإمام الزركشي:

أشار الإمام الزركشي في حديثه عن إعجاز القرآن في كتابه البرهان إلى الإعجاز التأثيري في القرآن كوجه من وجوه الإعجاز متتبعاً في ذلك خطى الإمام الخطابي والقاضي عياض، لكن لم يُضف إلى ما قالوه جديداً. (٣٨)

خامساً: الإمام السيوطي:

وقد أشار إلى الإعجاز التأثيري في الإتقان حين عد وجوه الإعجاز في القرآن، إلا أنه لم يُضف إلى قول لخطابي جديداً بل وقف عنده ولم يجاوزه.(٣٩)

المطلب الثاني: موقف العلماء المعاصرين من الإعجاز التأثيري

لم تختلف نظرة بعض العلماء المعاصرين عن نظرة من كان قبلهم في هذا الشأن فقد أيد العلماء المعاصرون هذا الوجه من الإعجاز لكنهم لم يتوسعوا فيه بل اكتفوا بمجرد الإشارة إليه.

لكن البعض الآخر لم يتوقف عند ما قرره السابقون بل خرج لنا بنظريات رائعة تستحق الوقوف عليها، ومن هؤلاء الأستاذ سيد قطب في كتابه التصوير الفني في القرآن الكريم.

ونظرة سيد قطب في الإعجاز تختلف عن نظرة سابقيه فهو يذهب إلى معرفة منبع السحر القرآني أو مواطن الإعجاز في القرآن، وقد بحث عن هذا قبل التشريع المحكم وقبل النبوءة الغيبية وقبل العلوم الكونية وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله، فقليل القرآن الذي كان في أيام الدعوة الأولى كان مجرداً من هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد وكان مع ذلك محتوياً على هذا النبع الأصيل الذي تذوقه العرب فقالوا: إن هذا إلا سحر يؤثر. (٤٠)

فإعجاز القرآن عند سيد قطب هو إعجاز بياني فني يكمن في نظرية التصوير الفني واستخدام القرآن التصوير كطريقة للتعبير عن شتى الأغراض. (٤١)

لكن سيد قطب لم يغفل الإعجاز التأثيري كوجه من وجوه الإعجاز إلى جانب نظريته في الإعجاز البياني الفني.

ومن إشارته إلى ذلك ما قاله في تفسيره قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ السجدة: ١ – ٣.

[إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن وتسمى بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن كلما تفتح القلب وصفى الحس وارتفع الإدراك وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة وإن هذه الظاهرة لتزداد كلما اتسعت ثقافة الإنسان ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه فليست هي مجرد وصلة تأثيرية وجدانية غامضة فهي متحققة حين يخاطب القلب المجرب والعقل المثقف والذهن الحافل بالعلم والمعلومات، وإن نصوصه ليتسع مدى مدلولاتها ومفهوماتها وإيقاعها على السواء كلما ارتفعت درجة العلم والثقافة والمعرفة]. (٤٢)

وفي موضع آخر يقول: [لقد كشفت لنا هذه الآية عن موضع التأثير في القرآن الكريم ويتبين لنا أن القرآن بكل آياته وسوره يحتوي على العنصر الذي يؤثر في سامعيه ويستحوذ على المؤمنين والكافرين على حد سواء هكذا: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾الزمر: ٢٣. فهو التأثير الذي يلمسه الوجدان ويحرك المشاعر ويفيض الدموع يسمعه الذين تهيأوا للإيمان فيسارعون إليه خاشعين ويسمعه الذين يستكبرون عن الإيمان فيقولون: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾المائدة:١١٠. أو يقولون: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾فصلت: ٢٦. فيقرون بالإعجاز الخلاب من حيث لا يشعرون أو يشعرون]. (٤٣)

وهنا يتضح تأييد سيد قطب للإعجاز التأثيري كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم كامن في كل آياته وسوره، إضافة لما قاله في إعجاز القرآن البياني الفني.

أما محمد فريد وجدي فهو ممن دافع عن الإعجاز التأثيري بحماس كما جاء في موضع سابق من هذا البحث بل لقد اعتبره الوجه الأول والرئيس للإعجاز مع عدم إنكاره جميل نظم القرآن وحسن سبك آياته وروعة بلاغته وكونه أعجز أفصح العرب فيقول: [لا مشاحة في أن القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة وسادات القوافي وملوك البيان، وهو حق ألزم كل غال الحجة وكل باحث عن المحجة، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهو هدى ورحمة ونور وشفاء لما في الصدور، كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والعواطف والميول فتتحكم فيه تحكم الملك في ملكه، ولكنه فوق ذلك كله روح من أمر الله تصل من روح الإنسان إلى حيث لا تصل إليه أشعة

البلاغة والبيان ولا سيالات الحكمة والعرفان، وتسري من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ولا يتخيله خيال شاعر]. (٤٤)

ويضيف: [إن هذه الروحانية وهذا التأثير يستوي فيه العارف باللغة والجاهل بها من الأمم الأعجمية، في تأثيرها ونتيجتها، فللقرآن فوق بلاغته وعذوبته روحانية يدركها من لاحظ في فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة فإن الطفل والعامي يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو كان بغير صوت حسن حتى إنما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن فيما لو أراد القارئ أن يغشهما]. (٤٥)

وقد رد كثير من العلماء المعاصرين على ودي في مقالته هذه، ومن هؤلاء العلماء الذي ردوا عليه عبد الكريم الخطيب(٤٦) ومحمد رجب البيومي(٤٧) وأستاذنا أ.د فضل عباس(٤٨) إذ إنهم يردون عليه قوله بأن الإعجاز التأثيري هو الوجه الأول للإعجاز، بل إن هذا التأثير العجيب ناشئ عن بلاغة القرآن ونظمه وذلك على ما كان عليه السابقون من اعتبار إعجاز القرآن الكريم بنظمه وبلاغة تعابيره وروعة معانيه هو الوجه الأول والرئيس للإعجاز.

وممن ذكر رأيه في الإعجاز عبد الله عفيفي في كتابه (زهرات منثورات في الأدب العربي) فقال: [إن من وجوه هذا الإعجاز تلك القوة الروحية المسيطرة على الحروف والكلمات وهي التي تثير المشاعر وتملك القلوب وأكثر ما تتمثل حين يتحدث ذو الجلال عن ذاته وصفاته وقدرته وقوته ورحمته حديثاً كان قوي الأثر في رياضته للعرب واجتذابهم إلى الإسلام]. (٤٩)

وهو في رأيه هذا لا يكاد يخرج عما ذكره الأستاذ فريد وجدي.

المطلب الرابع: نماذج من الإعجاز التأثيري

الأمثلة والنماذج على تأثير القرآن في النفوس عديدة على اختلاف الزمان والمكان سواء كانت النفوس كافرة أم مؤمنة وسواء كانت نفوس عرب تعرف العربية لغة القرآن وتتذوقها أم كانت نفوس أعاجم لا تعرف من العربية شيئاً.

النموذج الأول: تأثيره في العرب (قصة إسلام عمر رضي الله عنه):

روى ابن إسحاق في السيرة النبوية عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حديثه عن قصة إسلامه: [قال: كنت للإسلام مباعداً وكارهاً ومحارباً وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأحرص على شربها وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش على شربها.

فأرقت في ليلة من الليالي وخرجت أريد جلسائي في مجلسهم ذلك فلم أجد أحداً، فقلت: لو أني جئت فلاناً الخمار لعلي أجد عنده خمراً فجئته فلم أجده.

فقلت: لو أني ذهبت إلى الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين!!

فجئت الكعبة لأطوف بها فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي.

فقلت حين رأيته: لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، ثم قلت في نفسي: لئن دنوت منه لأروعنه فابتعدت عنه وجئت الكعبة من جهة حجر إسماعيل ودخلت تحت ثيابها وجعلت أمشي رويداً

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يقرأ القرآن حتى قمت في قبلته مستقبله ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة!

فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام ولم أزل قائما في مكاني هذا حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبعته وأسلمت]. (٥٠)

فما الذي أثر في سيدنا عمر رضي الله عنه ليدخل الإسلام ويكون من أبرز الصحابة المدافعين عنه وعن نبيه صلى الله عليه وسلم؟ إنه القرآن، القرآن وحده الذي جعل قلبه يرق ثم أبكاه من شدة التأثر بعظمة آياته.

النموذج الثاني: تأثيره في غير العرب (قصة المرأة اليوغسلافية مع سيد قطب):

كما أثر القرآن في نفوس العرب فقد أثر في نفوس غير العرب من مسلمين مؤمنين به وكافرين جاحدين به.

وفيما يلي نروي حادثة المرأة اليوغسلافية النصرانية التي أورد سيد قطب قصتها مع آيات القرآن:

إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز عن الأداء البشري، إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحياناً إلى حد أنه يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً.

ولن أذكر نماذج مما وقع لغيري ولكني أذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة وذلك منذ حوالي خمسة عشر عاماً.

كنا ستة نفر من المنتسبين للإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم...وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة! والله يعلم أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة وحاول أن يزاول تبشيره معنا!... وقد يسر لنا قائد السفينة – وكان إنجليزياً – أن نقيم صلاتنا وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمها – وكلهم نوبيون مسلمون – أن يصلي منهم معنا من لا يكون في الخدمة وقت الصلاة وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً إذ كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة.

وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة والركاب الأجانب – معظمهم متحلقون يرقبون صلاتنا – وبعد الصلاة جاءنا كثير منهم يهنئوننا على نجاح الصلاة !!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا!

ولكن سيدة من هذا الحشد – عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم "تيتو" وشيوعيته – كانت شديدة التأثر والانفعال تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها جاءت تشد على أيدينا بحرارة وتقول: – في إنجليزية ضعيفة – إنها لا تملك فسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح!.

وليس هذا موضع الشاهد من القصة... ولكن ذلك في قولها أي لغة هذه التي كان يتحدث بها قسيسكم!.. فالمسكينة لا تتصور أن يقيم الصلاة إلا قسيس – أو رجل دين – كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة وقد صححنا لها هذا الفهم وأجبناها!

فقالت: إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب وإن كنت لم أفهم منه حرفاً.

ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهي تقول: ولكن ليس هذا هو الموضوع الذي كنت أريد أن أسأل عنه ...إن الموضوع الذي لفت حسي هو أن الإمام كانت ترد في كلامه في هذه اللغة الموسيقية فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً... هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فيَّ رعشة وقشعريرة! إنها شيء آخر كما لو كان الإمام مملوء من روح القدس – حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها – وتفكرنا قليلاً ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء الخطبة وفي أثناء الصلاة!

وكانت – مع ذلك – مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة ومن سيدة لا تفهم مما نقول شيئاً].[٥١]

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فهذه أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال دراسة هذا البحث:

١- الإعجاز التأثيري هو ما يصنعه القرآن في القلب من روعة ومهابة وخشوع وقشعريرة تجعل قارئه وسامعه يتأثر به.

٢- الإعجاز التأثيري يتجلى في آيات القرآن جميعها، فموضع إعجاز القرآن التأثيري هو القرآن كله.

٣- لم يغفل علماء المسلمين موضوع إعجاز القرآن التأثيري – قديماً وحديثاً – وقد وَضُحت معالم هذا الأمر في القرن الرابع الهجري ثم توسعت آراء العلماء في الإعجاز التأثيري مع بروز علم النفس الحديث.

٤- من أهم أوجه الإعجاز: الإعجاز البياني ومن أبرز وجوه النظم القرآني كما يعتبر النظم من أهم عوامل الإعجاز التأثيري الذي يعتبر من أبرز وجوه الإعجاز البياني.

٥- الأداء القرآني – وهو إعطاء التلاوة حقها – له دور كبير في تأثير القرآن على النفس الإنسانية وذلك بالصوت الحسن والأداء الحسن مع الإيقاع للألفاظ والتناسق الفني بينها وفواصل الآيات فهذه كلها تعد من العوامل المكونة للإعجاز التأثيري.

٦- يشكل النظم والإيقاع والأداء والمعنى والموضوعات القرآنية مكمن الإعجاز التأثيري وسره في القرآن الكريم.

٧- ظهرت عدة مظاهر على المؤمنين جراء استماعهم للقرآن مها المهابة والخشوع والقشعريرة والبكاء والتنافس على العمل بالقرآن.وظهر على الكافرين التأثر بالقرآن من خلال استماعهم للقرآن خفية وحث أتباعهم على عدم الاستماع للقرآن وغير ذلك.

٨- ظهر على أهل الكتاب من النصارى التأثر بالقرآن من خلال اغروراق عيونهم بالدمع لما عرفوا من الحق وأعلنوا الإيمان به.

٩- أثر القرآن في الجن كما أثر في الإنس وكانت استجابتهم للحق مباشرة.

١٠- ما زالت النماذج الحية من تأثر غير العرب بالقرآن الكريم شاهداً قوياً على وجود الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم.

وأخيراً:فإن الإعجاز التأثيري وجه من وجوه الإعجاز البياني ناتجاً منه وزائداً عليه بدليل تأثيره في المرضى وغير العرب لأنه كلام الله وروح من أمره فهذا التأثير يبقى سراً من أسرار كتاب الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث

1- ينظر: محاضرة ألقاها محمد حجازي حفظه الله، جامعة اليرموك، كلية الدراسات العليا، دكتوراه، مادة إعجاز القرآن، تاريخ:٢٠٠٣/٣/٧م. (بتصرف).

2- ينظر: محاضرة في إعجاز القرآن، الأستاذ الدكتور محمد حجازي – حفظه الله – (بتصرف).

3- ينظر: الراغب، المفردات، تحقيق عدنان داودي، ط:٢، دار القلم، دمشق، ١٩٩٧م، ص: ٥٤٧-٥٤٨.

4- السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: محمد باسل عيون السود،ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦، ٣/٣١.

5- ينظر:ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، ط:١، دار الكتب العلمية، ٢/٢٢١.

6- ينظر: المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين،ط:٢، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا، ج/٢، ص/٥٨٥.

7- ينظر: الخالدي، صلاح عبد الفتاح، إعجاز القرآن البياني، ط:١، دار عمار، عمان، ٢٠٠٠م، ص/١٦-١٧.

8- ينظر: الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، ط:٣، دار المعارف، مصر، ص/٧.

9- قوله تعالى:{ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا }الإسراء: ٤٦.

10- ينظر: عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٤٧٦-٥٤٤هـ)، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق علي البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، مصر، ج/١، ص/٣٨٤.

11- ينظر: سيد قطب التصوير الفني في القرآن، ط:١٤، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٣م، ص/١١، (بتصرف).

12- ينظر: سيد قطب التصوير الفني في القرآن: ص/١٤.

13- ينظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ط:٣، المجلد السابع، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧١م، ص/٦٧٧.

14- ينظر: عباس، فضل حسن، إعجاز القرآن الكريم، ص/٣٤١، دار الفرقان، عمان، ١٩٩١م.

15- ينظر: الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤، ط:٣، ص/٣٨٣.

16- ينظر: الطبري جامعه البيان في تأويل القرآن، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج/٦، ص/١٧٧-١٧٨.

17- ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ط:١، مؤسسة التاريخ، بيروت، ٢٠٠م، ج/٢٥، ص/٤٥.

18- ينظر: الآلوسي، روح المعاني، ج/١٣، ص/٢٠٠.

19- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ط:١٥، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٨م، ج/٢، ص/٩٦٢.

20- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج/٢٩، ص/٢٠٥.

21- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٢٧/٦.

22- ينظر: الطبري، جامع البيان، ٥١/١٢.

23- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٠٤/٢٨.

24- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٣٥٣٢/٦.

25- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط:١، دار ابن حزم بيروت، ٢٠٠٠م، ص/١١٣٥.

26- ينظر:سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢٢٤٨/٤.

27- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ط:٢، دار السلام، الرياض، دار الفيحاء، دمشق، ١٩٩٩م، ص/١٠١٣، باب:٣٣، حديث رقم: ٥٧٣٦.

28- صحيح البخاري، ص/١٠١٣، باب:٣٣، حديث رقم: ٥٧٣٦.

29- ينظر: ابن القيم، الفوائد، ط:١، مكتبة الإيمان، القاهرة، ١٩٩٤م، ص/٣.

30- ينظر: المرجع السابق، ص/٤.

31- ينظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩م، ٤٥٧/٩.

32- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٤٢٦/٣.

33- ينظر: محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف، ط: ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥، ٨٧/٤.

34- ينظر: الزمخشري، الكشاف، ٣١٧/٤-٣١٨.

35- ينظر: الرماني، النكت في إعجاز القرآن، منشور ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعارف، مصر، ٧٥-١١٣.

36- ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ص/١٣٣.

37- ينظر: الخالدي، البيان في إعجاز القرآن، ط:٣، دار عمار، عمان، ١٩٩٢م، ص/١١٠-١١٤.

38- ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ١١٣/٢-١١٤.

39- ينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تعليق مصطفى البغا، ط:٤، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠٠م، ١٠٠١/٢-١٠٢٤.

40- ينظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص:١٨.

41- ينظر: الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، ط:٢، دار المنارة، جدة، ١٩٨٩م، ص/١٩-٢٣.

42- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٢٨٠٥/٥.

43- ينظر: سيد قطب، التصوير الفني، ص/١٦.

44- ينظر: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ص/٦٧٧.

45- المرجع السابق: ص/٦٧٩.

46- ينظر: عبد الكريم، الإعجاز في دراسات السابقين، ط:١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤، ص/٣٤٢، ص/٣٥٣.

47- ينظر:محمد رجب البيومي، البيان القرآني، مجمع البحوث الإسلامية، السنة الثالثة، الكتاب الواحد والثلاثون، ص/٢٤٨، ص/٢٥٢.

48- ينظر:فضل عباس، إعجاز القرآن الكريم، ط: دار الفرقان، عمان، ١٩٩١م، ص/٣٤٤-٣٤٥.

49- ينظر: محمد رجب بيومي، البيان القرآني، ص/٢٥٨.

50- ينظر: ابن هشام، عبد الملك، السيرة النبوية، ت مصطفى السقا وآخرون، ط:٢، درا إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧، ٣٨٤/١-٣٨٥.

51- ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، ١٧٨٦/٣.